# الفصل الخامس

# من البعث إلى إسلام عمر

حديث خديجة وورقة بن نوفل – فتور الوحى – إسلام أبى بكر – المسلمون الأولون – دعوة محمد أهله للإسلام – إغراء قريش شعراءها بمحمد – ذكر محمد آلهة قريش بالسوء – سفارة قريش إلى أبى طالب – موقف محمد من عمه – تعذيب قريش المسلمين – هجرة المسلمين للحبشة – إسلام عمر.

نام محمد وحدقت فيه خديجة وقد امتلأ قلبها إشفاقًا وأملًا لهذا الذى سمعت منه. فلمّا رأته استغرق فى نوم مطمئن هادئ، تركته وخرجت تقلّب فى نفسها هذا الذى هز قلبها وأثار هواجسها، وتفكّر فى الغد ترجوه خيرًا، وترجو أن يكون زوجها نبيّ هذه الأمة العربيّة التى غرقت فى الضلال؛ يهديها دينَ الحقّ ويدلها على الصراط المستقيم. ولكنها، مع ذلك كانت تخشى هذا الغد أشد الخَشية على هذا الزوج البار الوفى الحميم. وطفِقت تعرض أمام بصيرتها ما قص عليها، وتتخيل الملَك الجميل الذى تعرض له فى السماء بعد أن أوحى إليه كلمات ربه، والذى ملأ عليه الوجود كله حينما كان يراه أينما صرف وجهه، وتستعيد الكلمات التى تلا محمد بعد أن نُقشت فى صدره. جعلت تعرض ذلك كله أمام بصيرتها فتفتر شفتاها طورًا عن ابتسامة الأمل، وتنكمش أساريرها طورًا آخر خيفة ما قد يكون أصاب الأمين. ولم تطِق البقاء فى وحدتها طويلًا. تنتقل من الأمل الحلو الباسم إلى الريبة والإشفاق المخوف، ففكرت بأن تفضى بما فى نفسها إلى من تعرف فيه الحكمة ومحض النصيحة.

## حديث ورقة خديجة:

لذلك انطلقت إلى ابن عمها وَرَقة بن نَوفَل؛ وكان كما قدَّمنا، قد تنصَّر وعرف الإنجيل ونقل بعضه إلى العربية. فلمّا أخبرته بما رأى محمد وسمع، وقصت عليه كل ما حدثها به، وذكرت له إشفاقها وأمَلها، أطرق مليًّا ثم قال: «قدُّوس قدُّوس، والذى نفسُ ورقة بيده لئن كنت صَدقتِنى يا خديجة لقد جاءه الناموس الأكبر الذى كان يأتى موسى، وإنه لنبى هذه الأمة. فقولى له فليَثْبُت». وعادت خديجة فألفت محمدًا ما يزال نائمًا، فحدقت فيه وكلها الحب والإخلاص، وكلها الإشفاق والأمل. وفيما هو فى هدأة نومه إذا به اهتز وثَقُلَ تنفسه وبلل العرق جبينه يقوم ليستمع إلى الملك يوحى إليه: ﴿يأيُّها المُدَّثِّر. قُمْ فَأَنْذِر. وَرَبَّكَ فَكبر. وثيابَكَ فَطَهِّرْ. والرُّجْزَ فَاهْجُرْ. ولا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرْ. ولِرَبِّكَ فاصْبِرْ﴾[1].

---

(١) سورة المدثر الآيات من ١ إلى ٧.

ورأته خديجة كذلك فازدادت إشفاقًا، وتقدَّمت إليه فى رقة وضراعة أن يعود إلى فراشه وأن ينام ليستريح. فكان جوابه – أو كما قال – انقضى يا خديجة عهد النوم والراحة، فقد أمرنى جبريل أن أُنْذِر الناس وآن أدعوهم إلى الله وإلى عبادته. فمن ذا أدعو؟ ومن ذا يستجيب لى؟ فجهدت خَديجة تهون عليه الأمر وتثبته. وسارعت فقصت عليه نبأ ورقة وما حدثها به، ثم أعلنت إليه فى شوق ولهف إسلامها له وإيمانها بنبوَّته.

وكان طبيعيًّا أن تسارع إلى الإيمان به، وقد جربت عليه طول حياته الأمانة والصدق وعلو النفس وحب البر والرحمة، رأته فى سنوات تحنثه كيف شغلت نفسه بالحق وحده، يطلبه مرتفعًا بقلبه وبروحه وبعقله فوق أوهام الناس ممن يعبدون الأصنام ويقرِّبون لها القرابين، وممن يرون فيها آلهة يزعمونها تضر وتنفع، ويتوهمونها خليقة بالعبادة والإجلال. رأته فى سنوات تحنثه كما رأت كيف كان حاله أول عوده من حِرَاء بعد البعث وهو فى أشد الحيرة من أمره. ولقد طلبت إليه متى جاءه الملك أن يخبرها. فلما رآه أجلسته على فخذها اليسرى ثم على فخذها اليمنى، ثم فى حجرها وهو ما يزال يراه، فحسرت وألقت خمارها فإذا هو لا يراه؛ فلم يبق ريب عندها فى أنه ملك وليس بشيطان.

**ورقة ومحمد ﷺ:**

وخرج محمد ﷺ من بعد ذلك يومًا للطواف بالكعبة، فلقيه ورقة بن نوفل فلما قص عليه محمد أمره قال ورقة: «والذى نفسى بيده إنك لنبى هذه الأمة. ولقد جاءك الناموس الأكبر الذى جاء موسى. ولتُكَذَّبَن، ولتُؤْذَيَنَّ، ولتُخْرَجَنَّ، ولتُقَاتَلَنَّ. ولئن أنا أدركت ذلك اليوم لأنصرنَّ الله نصرًا يعلمه». ثم أدنى منه رأسه فقبَّل يافوخه. وشعر محمد بصدق ورقة فى قوله وبثقل ما ألقى عليه، وطفق يفكر كيف يدعو قريشًا إلى ما آمن به وهو يعلم أنهم أحرص ما يكونون على باطلهم، حتى ليقاتلون فى سبيله ويُقْتلون، وهم من بعدُ أهلُه وعشيرته الأقربون.

إنهم فى ضلال، وإن ما يدعوهم إليه هو الحق. فهو يدعوهم إلى الارتفاع بقلوبهم وبأرواحهم لتتصل بالله الذى خلقهم وخلق من قبلُ آباءهم، ليعبدوه مُخلصين له الدينَ طاهرة نفوسهم. وهو يدعوهم ليتقرَّبوا إلى الله بالعمل الصالح وإيتاء ذى القربى حقَّه وابن السبيل، ولينبذوا عبادة هذه الأحجار التى اتخذوا منها أصنامًا يزعمون أنها تغفر لهم ما يمعنون فيه من لهو وفسوق، ومن أكل الرِّبا ومال اليتيم، فإذا عبادتها تُحيل نفوسهم وقلوبهم أشدَّ من الأصنام تحجرًا وقسوة! وهو يُهيب بهم أن ينظروا إلى ما فى السموات والأرض من خلق الله لتمتثل نفوسهم ذلك كله وتدرك ما له من خطر وجلال، فتعْظُم بإدراكها سنَّةَ ما فى السموات وما فى الأرض، ثم تعظم بعبادتها خالق الوجود كله وحده لا شريك له، وتسمو لذلك عن كل وضيع، وتتعالى عن كل دون، وتأخذها الرحمة بكل من لم يهده الله وتعمل لهدايته، وتكون البرَّ لكل يتيم ولكل بائس أو ضعيف. نعم! إلى هذا أمره الله أن يدعوهم. لكن هذه القلوب القاسية، وهذه الأرواح الغِلاظ قد يبست على عبادة ما كان يعبد

آباؤها. ووجدت فيه تجارة مكة مركز حَجيج عَبَدة الأصنام! أفيتركون دين آبائهم ويعرّضون مكانة مدينتهم لما قد تتعرَّض له إذا لم يبق على عبادة الأصنام أحد؟! ثم كيف تطهرُ هذه القلوب وتخلُص من أدران شهواتها، والشهوة تهبط بها إلى إرضاء بَهيميَّتها، في حين هو ينذر الناس أن يرتفعوا فوق شهواتهم وفوق أصنامهم؟ وإذا هم لم يؤمنوا به فماذا عسى أن يفعل؟ هذه هي المسألة الكبرى؟

## فتور الوحي:

انتظر هداية الوحي إيَّاه في أمره وإنارة سبيله، فإذا الوحي يفتر! وإذا جبريل لا ينزل عليه، وإذا ما حوله سكينة صامتة جعلته في وحدة من الناس ومن نفسه، وردَّته إلى مثل مخاوفه قبل نزول الوحي. وقد رُوي أن خديجة قالت له: ما أرى ربك إلا قد قَلاك. وتولاه الخوف والوجل، فهما يبتعثانه من جديد يَطوي الجبال وينقطع في حراء يرتفع بكل نفسه ابتغاء وجه ربِّه يسأله: لم قلاه بعد أن اصطفاه؟ ولم تكن خديجة أقلَّ منه إشفاقًا ووجلًا. ويتمنَّى الموت صادقًا لولا أنه كان يشعر بما أمر به فيرجع إلى نفسه ثم إلى ربه. ولقد قيل: إنه فكر في أن يُلقي بنفسه من أعلى حراء أو أبي قُبيْس. وأي خير في الحياة وهذا أكبر أمله فيها يذوِي وينقضي! وإنه لكذلك تساوره هذه المخاوف إذ جاءه الوحي بعد طول فتوره.

## نزول سورة الضحى:

ونزل عليه بقوله تعالى: ﴿والضُّحَى واللَّيلِ إذا سَجَى. مَا وَدَّعَكَ رَبكَ وما قَلَى. ولَلآخِرَةُ خيرٌ لكَ مِنَ الأُولى. وَلَسَوْفَ يُعطيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى. أَلَمْ يَجدكَ يَتيمًا فآوَى. وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى. وَوَجَدَكَ عائلًا فَأَغْنَى. فَأَمَّا اليتيمَ فَلا تَقْهَرْ. وَأَمَّا السَّائِلَ فلا تَنْهَرْ. وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾[1].

## الدعوة إلى الحق وحده:

يالجَلال الله! أيَّة سكينة للنفس، وغبطة للقلب، وبهجة للفؤاد! إنجابت مخاوف محمد وزال كل روعه، وارتسمت على ثغره ابتسامة الرضا، وافترّت شفتاه عن معاني الحمد وآي التقديس والعبادة، لم يبق لما كانت تخشى خديجة من أن الله قلاه ولم يبق لفزعه وهلعه موضع، بل تولاّه الله وتولاها برحمته، وأزال كل خشية أو ريبة من نفسه. لا انتحار إذًا، ولكن حياة ودعوة إلى الله، وإلى الله وحده. إلى الله العليّ الكبير تعنو له الجباه ويسجد له مَنْ في السموات والأرض جميعًا. هو وحده الحقُّ وكل ما يدعون من دون الباطلُ. إليه وحده يتوجَّه القلبُ، وبه وحده يجب أن تتعلق النفس، وفيه وحده يجب أن تفنى الرُّوح، وللآخرة خير لك من الأولى. الآخرة التي تُحيط فيها النفس بكل الوجود في كمال وحدته، والتي يتناهى إليها المكان والزمان وتُنسَى فيها اعتبارات هذه الحياة

(١) سورة الضحى.

الوضيعة الأولى. الآخرة التى يصير فيها الضحى ولألاء شمسه الباهرة، والليل ودُجاه الساجى، والسموات والكواكب والأرض والجبال كُلًّا واحدًا تتصل به الروح الراضية المرضية. هذه هى الحياة التى يجب أن تكون إليها الغاية من سفر هذه الحياة. هذا هو الحق وكل ما دونه صور منه لا تغْنى عنه. هذا هو الحق الذى أضاء بنوره روح محمد والذى ابتعثه من جديد ليفكر فى الدعوة إلى ربِّه. وللدعوة إلى ربه يجب أن يطهر ثيابه، وأن يهجر المنكر، وأن يصبر على ما يلاقى من الأذى فى سبيل الدعوة إلى الحق، وأن ينير للناس سبيل العلم بما لم يكونوا يعلمون، وألّا ينهر من أجل ذلك سائلا، ولا يقهر يتيمًا. حَسْبُه اختيار الله إياه لكلمته فليتحدث عنها. وحسبه أن الله وجده يتيمًا فآواه فى كفالة جَدّه عبد المطلب وعمه أبى طالب؛ وأنه وجده فقيرًا فأغناه بأمانته ويسَّر له خديجة شريكة صباه، شريكة تجنته، شريكة بعثه، شريكة المحبة، الناصحة الرءوف؛ وأنه وجده ضالا فهداه برسالته. حسبُه هذا. وليدعُ إلى الحق جاهدًا ما استطاع. ذلك أمر الله إلى نبيه الذى اصطفاه، ما ودّعه وما قلاه.

## الصلاة - إسلام على بن أبى طالب:

وعلَّم الله نبيه الصلاة فصلَّى وصلَّت خديجة معه. وكان يقيم معها غير بناتها عليٌّ بن أبى طالب الذى كان صبيًّا لمَّا يبلغ الحُلم. ذلك أن قريشًا أصابتهم أزمة شديدة؛ وكان أبو طالب كثير العيال. فقال محمد ﷺ لعمه العباس - وكان من أكثر بنى هاشم يسارًا -: «إن أخاك أبا طالب كثير العيال، وقد أصاب الناس ما ترى من هذه الأزمة: فانطلق بنا إليه فلنخفف من عياله، آخُذ من بنيه رجلًا وتأخذ أنت رجلًا فنكفلها عنه»... وكفل العباس جعفرًا وكفل محمد عليًّا، فلم يزل معه حتى بعثه الله. وفيما محمد وخديجة يصليان يومًا دخل عليهما عليٌّ مفاجأة، فرآهما يركعان ويسجدان ويتلوان ما تيسَّر مما أوحاه الله يومئذ من القرآن. فوقف الشابُّ دَهِشًا حتى أتما صلاتهما، ثم سأل: لمن تسجُدان؟ فأجابه محمد - أو كما قال -: إنما نسجد لله الذى بعثنى نبيًّا وأمرنى أن أدعو الناس إليه. ودعا محمدٌ ابن عمه إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وإلى دينه الذى بعث نبيَّه به، وإلى إنكار الأصنام من أمثال اللات والعُزَّى، وتلا محمد ما تيسَّر من القرآن، فأخِذ عليٌّ عن نفسه، وسَحَره جمال الآيات وإعجازها واستمهل ابن عمه حتى يشاور أباه. ثم قضى ليله مضطربًا حتى إذا أصبح أعلن إليهما أنه اتبعهما من غير حاجة لرأى أبى طالب وقال: «لقد خلقنى الله من غير أن يشاور أبا طالب، فما حاجتى أنا إلى مشاورته لأعبد الله». وكذلك كان عليٌّ أول صبى أسلم، ومن بعده أسلم زيد بن حارثة مولى النبى. وبذلك بقى الإسلام محصورًا فى بيت محمد: فيه وفى زوجته وابن عمه ومولاه. وظل هو يفكر كيف يدعو قريشًا إليه وهو يعلم ما هى عليه من شدة البأس وبالغ التعلق بعبادات آبائها وأصنامهم.

## إسلام أبي بكر:

وكان أبو بكر بن أبي قحافة التَّيْمي صديقًا حميمًا لمحمد، يستريح إليه ويعرف فيه النزاهة والأمانة والصدق. لذلك كان هو أول من دعاه إلى عبادة الله وحده وترك عبادة الأوثان، وأول من أفضى إليه بما رأى وبما أوحى إليه: ولم يتردد أبو بكر في إجابة محمد إلى دعوته وفي الإيمان بها، وأيُّ نفس تنشرح للحق تتردد في ترك عبادة الأوثان لعبادة الله وحده؟ وأيُّ نفس فيها شيء من السمو ترضى عن عبادة الله عبادة حجر أيًّا كانت صورته؟. أو أيّ نفس تقية تتردد في طهر الثياب وطهر النفس وإعطاء السائل والبر باليتيم؟ وأذاع أبو بكر بين أصحابه إيمانه بالله وبرسوله. وكان أبو بكر رجلًا وسيمًا «مَألَفًا لقومه مُحبَّبًا سهلًا، وكان أنسبَ قريش لقريش وأعلم قريش بها وبما كان فيها من خير وشر. وكان رجلًا تاجرًا ذا خُلق ومعروف وكان رجال قومه يألفونه لغير واحد من الأمر، لعلمه وتجارته وحسن مجالسته».

## المسلمون الأولون:

وجعل أبو بكر يدعو إلى الإسلام من وثق به من قومه، فتابعه على الإسلام عثمان بن عفان، وعبدالرحمن بن عوف وطلحة بن عُبيدالله وسَعْد بن أبي وقاص، والزُّبير بن العوام، ثم أسلم من بعد ذلك أبو عبيدة بن الجراح وكثيرون غيره من أهل مكة.

وكان أحدهم إذا أسلم ذهب إلى النبي فأعلن إليه إسلامه وتلقى عنه تعاليمه وكان المسلمون الأولون يستخفون لعلمهم بما تضمر قريش من عداوة لكل خارج على أوثانها، فكانوا إذا أرادوا الصلاة انطلقوا إلى شعاب مكة وصلوا فيها. وظلوا على ذلك ثلاث سنوات ازداد الإسلام فيها انتشارًا بين أهل مكة، ونزل على محمد فيها من الوحي ما زاد المسلمين إيمانًا وتثبيتًا.

وكان مَثَل محمد ﷺ خير ما يزيد الدعوة انتشارًا: كان بَرًّا رحيمًا، جَمَّ التواضع كامل الرجولية، عذْب الحديث، محبًّا للعدل، يُعطي كل ذي حقٍ حقه، وينظر إلى الضعيف واليتيم وإلى البائس والمسكين نظرة كلها الأبوّة والحنان والعطف والمودّة. وكان تهجّده وسهره الليل وترتيله ما أنزل عليه ودوام نظره في السموات والأرض والتماس العبرة من الوجود كله وكل ما فيه، وفي توجهه الدائم لله وحده، والتماسه حياة الكون كله في أطواء نفسه ودخيلة حياته، مثلًا جعل الذين آمنوا به وأسلموا له أحرص على إسلامهم وأشدّ يقينًا بإيمانهم، على ما في ذلك من إنكار ما كان عليه آباؤهم واحتمال تعرّضهم لأذى المشركين ممن لم يدخل الإيمان في قلوبهم. آمن بمحمد من تجار مكة وأشرافها مَن عرفت نفوسهم الطهر والنزاهة والمغفرة والرحمة، وآمن به كل ضعيف وكل بائس وكل محروم، وانتشر أمر محمد بمكة ودخل الناس في الإسلام أرسالًا رجالًا ونساء.

## قريش والمسلمون:

وتحدَّث الناس عن محمد وعن دعوته. على أن أهل مكة من قُساة الأكباد ومَنْ على قلوبهم أقفالُها لم يعبئوا به أول أمره وظنوا أن حديثه لن يزيد على حديث الرهبان والحكماء أمثال قُسّ وأمية وورقة وغيرهم، وأن الناس عائدون لا محالة إلى دين آبائهم وأجدادهم، وأنَّ هُبل واللات والعُزَّى، وإسافًا ونائلة اللذين كان يُنحر عندهما، ستكون آخر الأمر صاحبة الغلب، ناسين أن الإيمان الصادق لا يغلبه غالب، وأن الحق قد كتب له الفوز أبدًا.

بعد ثلاث سنين من حين البعث أمر الله رسوله أن يظهر ما خفى من أمره وأَنْ يَصْدعَ بما جاء منه، ونزل الوحي: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ * وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَإِنْ عَصَوكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾[1] ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾[2]

## عشيرته الأقربون:

ودعا محمد ﷺ عشيرته إلى طعام في بيته، وحاول أن يحدّثهم داعيًا إياهم إلى الله؛ فقطع عمه أبو لهب حديثه واستنفر القوم ليقوموا. ودعاهم محمد في الغداة كرَّةً أخرى، فلما طعِموا قال لهم: ما أعلم إنسانًا في العرب جاءَ قومَه بأفضل مما جئتكم به، قد جئتكم بخير الدنيا والآخرة. وقد أمرني ربي أن أدعوكم إليه. فأيكم يؤازرني على هذا الأمر؟ فأعرضوا عنه وهمّوا بتركه – لكن عليًّا نهض، وهو ما يزال صبيًّا دون الحلم. وقال: «أنا يارسول الله عونك. أنا حربٌ على من حاربتَ». فابتسم بنو هاشم وقهقه بعضهم، وجعل نظرهم ينتقل من أبي طالب إلى ابنه، ثم انصرفوا مستهزئين.

انتقل محمد ﷺ بعد ذلك بدعوته من عشيرته الأقربين إلى أهل مكة جميعًا. صعد الصَّفا يومًا ونادى: يامعشر قريش! قالت قريش: محمد على الصَّفا يهتف، وأقبلوا عليه يسألونه ماله؟ قال: أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلًا بسَفح هذا الجبل أكنتم تصدّقون؟ قالوا: نعم! أنت عندنا غير متهم وما جرّبنا عليك كذبًا قطُّ. قال: فإني نذيرٌ بين يدي عذاب شديد، يابني عبدالمطلب يابني عبد مناف، يابني زُهْرة، يابني تَيْم، يابني مخزوم، يابني أسَد، إن الله أمرني أن أنذِر عشيرتي الأقربين، وإني لا أملك لكم من الدنيا منفعةً ولا من الآخرة نصيبًا إلا أن تقولوا: لا إله إلا الله، أو كما قال: فنهض أبو لهب – وكان رجلًا بديئًا سريع الغضب – فصاح: «تبًّا لك سائر هذا اليوم! ألهذا جمعتنا!»

وارْتجَ على محمد ﷺ فنظر إلى عمه، ثم ما لبث أن جاء الوحي بقوله تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ * مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ * سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾[3].

---

(١) سورة الشعراء الآيات من ٢١٤ إلى ٢١٦. (٢) سورة الحجر من ١ إلى ٣.
(٣) سورة المسد آية ١.

**الإسلام والحرية:**

لم يحُلْ غضب أبى لهب ولا خصومة غيره من قريش دون انتشار الدعوة إلى الإسلام بين أهل مكة. فلم يكن يوم إلا أسلم فيه بعضهم لله وجهه. وكان الزاهدون فى الدنيا أشدَّ على الإسلام إقبالاً. أولئك لا تُلهيهم التجارة ولا يلهيهم البيع عن التأمل فيما يدعوهم الداعى إليه. وهم قد رأوا محمدًا فى غنى من مال خديجة وماله، وها هو ذا مع ذلك لا يعبأ بهذا المال ولا بالمزيد عليه والإكثار منه، ويدعو إلى الحب والعطف والمودَّة والتسامح. بل ها هو ذا يجيئه الوحى بأن فى الإكثار من الثروة لعنةً للروح. أليس يقول: ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ * حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ * كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ * ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ * كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ * لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ * ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ * ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾[1].

وأى شىء خير مما يدعو إليه محمد! أليس هو يدعو إلى الحرية! إلى الحرية المطلقة التى لا حدود لها! إلى الحرية العزيزة على نفس العربى عزة حياته عليه! نعم! أليس يطلق الناس من التقيُّد بأية عبادة غير عبادة الله وحده! أليس يحطم كل ما بينهم وبينه من أغلال! لا هُبل ولا اللات ولا العُزَّى ولا نار المجوس ولا شمس المصريين ولا نجوم عُبَّاد النجوم ولا الحواريون ولا أحد من الإنس أو من الملائكة أو من الجان يحجب بين الله والإنسان. وأمام الله، أمامه وحده لا شريك له، يُسأل الإنسانُ عما قدَّم من خير أو شر. وأعمال الإنسان هى وحدها شفيعه. وضميره هو الذى يزن أعماله، وهو وحده صاحب السلطان عليه، وبه يُحَاسَب يوم تُجزَى كلُّ نفس بما كسبت. أيَّة حرية أوسع مدًى من هذه الحرية التى يدعو محمد إليها؟! وهو يدعو أبو لهب وأصحابه إلى شىء من مثلها؟! أم هم يدعون الناس لتظل نفوسهم فى رقّ وعبودية بما تكدّس عليها من خُرافات حجبت عنها نور الحق أو ضياء الهدى؟

**شعراء من قريش - مطالبة محمد ﷺ بالمعجزات:**

على أن أبا لهب وأبا سفيان وأشراف قريش وأمجادها، وأشراف المال وأمجاد اللهو، بدءوا يشعرون بما فى دعوة محمد ﷺ من خطر على مكانتهم، فرأوا بادئ الرأى أن يحاربوه بالحط من شأنه، وبتكذيبه فيما يزعم من نبوّته. وكان أوَّل ما صنعوا من هذا أن اغرَوْا به شعراءهم: أبا سفيان ابن الحارث وعمرو بن العاص وعبداله بن الزِّبَعْرَى، يهجونه ويقارعونه. وتولَّت طائفة من شعراء المسلمين الردَّ على هؤلاء من غير أن يكون محمد ﷺ فى حاجة إلى مساجلتهم. هنالك تقدَّم غير الشعراء يسألون محمدًا ﷺ عن معجزاته التى يُثبت بها رسالته؛ معجزات كمعجزات موسى وعيسى. فما باله لا يُحيل الصفا والمروة ذهبًا، ولا ينزل عليه الكتاب الذى يتحدَّث عنه مخطوطًا من السماء!

---

(١) سورة التكاثر.

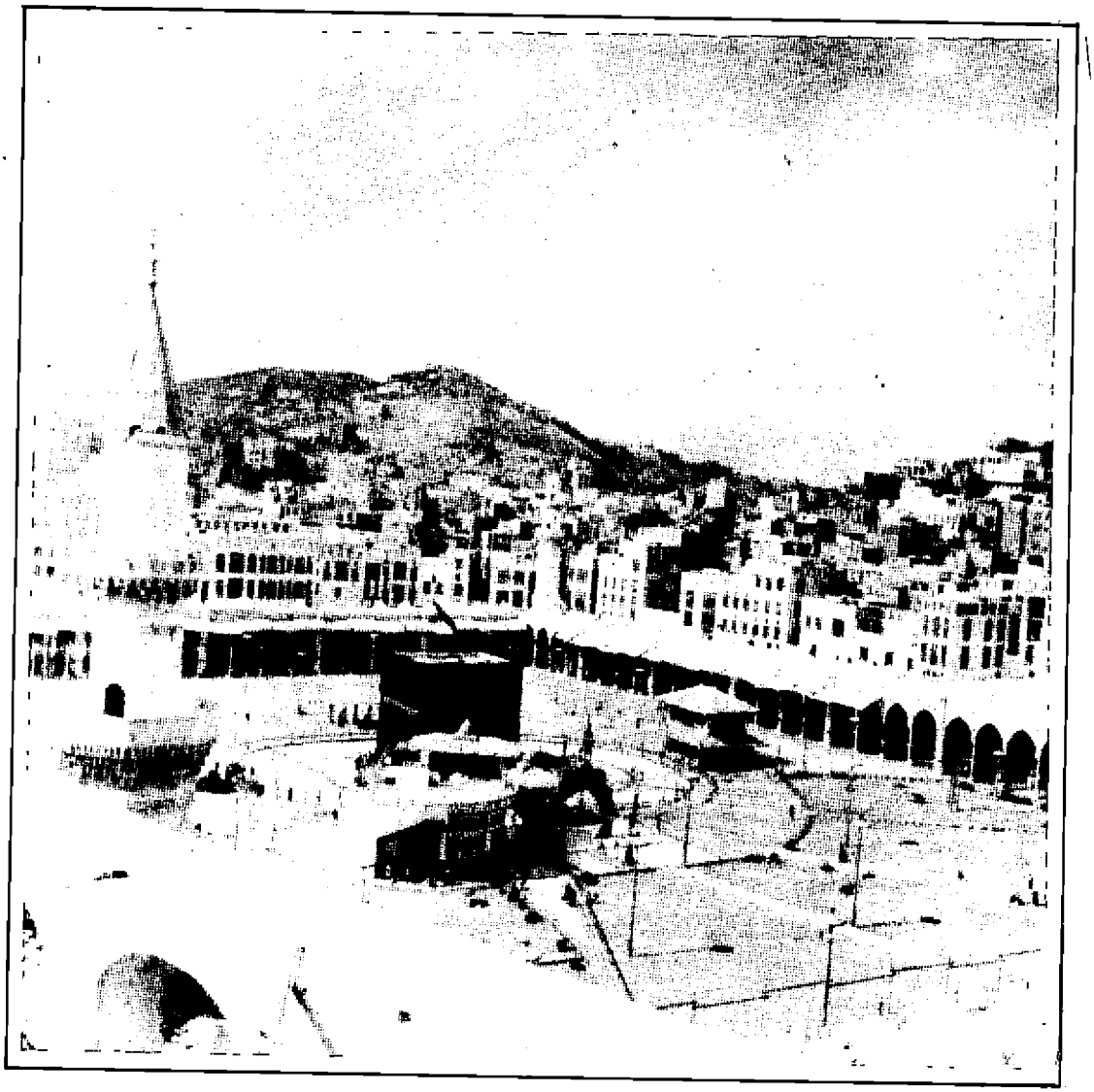

٢ جانب من المسجد الحرام

خلاف فسنكفيكه» فردّهم أبو طالب ردًّا جميلًا. ومضى محمد يشتدّ فى الدعوة إلى رسالته، ويزداد لدعوته أعوانًا. وائتمرت قريش بمحمد ومشوا إلى أبى طالب مرّةً أخرى ومعهم عُمارة بن الوليد بن المُغيرة، وكان أنهدَ فتًى فى قريش وأجمله، وطلبوا إليه أن يتخذه ولدًا ويُسلمهم محمدًا، فأبى: ومضى محمد فى دعوته ومضت قريش فى ائتمارها. ثم ذهبوا إلى أبى طالب مرة ثالثة وقالوا له: «يا أبا طالب، إن لك سنًّا وشرفًا ومنزلة فينا، وقد استنهيناك من ابن أخيك فلم تنهه عنا. وإنا والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا وتسفيه أحلامنا وعَيْب آلهتنا حتى تكفّه عنا أو تنازله وإياك حتى يهلك أحد الفريقين». وعظُم على أبى طالب فراق قومه وعداوتهم، ولم يَطب نفسًا بإسلام ابن أخيه ولا خذلانه. ماذا تراه يصنع؟ بعث إلى محمد فقصّ عليه رسالة قريش، ثم قال له: «فأبق علىّ وعلى نفسك ولا تحملنى من الأمر ما لا أطيق».

**ما اتجاه التاريخ؟:**

وأطرق محمد إطراقة وقف إزاءها تاريخ الوجود كله برهة مبهوتًا لا يدرى بعدها ما اتجاهه. وفى الكلمة التى تفترّ عنها شفتا هذا الرجل حكمٌ على العالم: أهو يظلّ فى الضلال يُمَدّ له فيه، فتطغى المجوسيّة على النصرانية المتخاذلة المضطربة وترفع الوثنية بباطلها رأسها الخَرِف الأفن. أم هو يُضىء أمامه نور الحقّ، تُعْلن فيه كلمة التوحيد، وتحرر فيه العقول من رقّ العبودية والقلوب من أسر الأوهام، وترتفع فيه النفس الإنسانية لتتصل بالملأ الأعلى؟ وهذا عمه كأنه ضعف عن نصرته والقيام معه، فهو خاذله ومُسْلمه. وهؤلاء المسلمون ما يزالون ضعافًا لا يقوون على حرب ولا يستطيعون مقاومة قريش ذات السلطان والمال والعُدَّة والعدد. إذًا لم يبق له دون الحق الذى ينادى الناس باسمه نصير، ولم يبق له سوى إيمانه بالحق عُدَّة. ليكن! إن الآخرة خير له من الأولى. فليؤدّ رسالته وليَدعُ إلى ما أمره ربه. ولَخَيْرٌ له أن يموت مؤمنًا بالحق الذى أوحى إليه من أن يخذله أو يتردّد فيه. لذلك التفت إلى عمّه ممتلئ النفس بقوّة إرادته وقال له: «يا عمّ، والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته»

**بنو هاشم يمنعون محمدًا ﷺ من قريش:**

يا لَعَظمة الحقّ وجلال الإيمان به! اهتزّ الشيخ لما سمع من جواب محمد، ووقف كذلك مبهوتًا أمام هذه القوّة القدسيّة والإرادة السامية فوق الحياة وما فى الحياة. وقام محمد وقد خنقته العَبْرة مما فاجأه به عمه وإن لم تَدُرْ بنفسه خلجةُ ريب فى السبيل الذى يسلُك. ولم تك إلا لحظة اهتز فيها وجود أبى طالب متحيرًا بين غضبة قومه وموقف ابن أخيه حتى نادى محمدًا أن أقبل فلما أقبل قال له: اذهب يا ابن أخى فقل ما أحببت، فوالله لا أسلمك لشىء تكرهه أبدًا! وأفضى أبو طالب إلى بنى هاشم وبنى المطلب بقول ابن أخيه وبموقفه،وحديثه عنه يتدفّق بروعة ما شهد وجلال ما شعر به، وطلب إليهم أن يمنعوا محمدًا من قريش؛ فاستجابوا له جميعًا إلا أبا لهب فإنه صارحهم بالعداوة

وانضمّ إلى خصومهم عليهم. وهم لاريب قد منعوه متأثرين بالعصبية القوميَّة وبالخصومة القديمة بين بنى هاشم وبنى أمية. لكنَّ العصبية لم تكن وحدها التى حفزتهم إلى الوقوف هذا الموقف من قريش كلها فى أمر له من جلال الخطر ما للدعوة إلى نبذ دينهم والخروج على عقائدهم التى وجدوا عليها آباءهم؛ بل كان موقف محمد منهم وشدَّة إيمانه بينهم ودعوته الناس بالحسنى إلى عبادة الواحد الأحد، وما كان شائعًا يومئذ بين قبائل العرب جميعًا من أن لله دينًا غير دينهم الذى هم عليه مما جعلهم يرون حقًّا لابن أخيهم محمد أن يعالن الناس برأيه كما كان يفعل أميَّة بن أبى الصَّلت وورقة بن نوفل وغيرهما. فإن يكن محمد على الحق - وذلك ما لا ثقة لهم به - فسيظهر الحق من بعدُ وسيكون لهم من مجده نصيب، وإلا يكن على الحق فسينصرف الناس عنه كما انصرفوا من قبلُ عن غيره، ثم لن يكون لدعوته من الأثر أن يخرجوا على تقاليدهم وأن يُسلموه لخصومه كى يقتلوه.

## إيذاء قريش المسلمين:

اعتصم محمد ﷺ بقومه من أذى قريش، كما اعتصم بخديجة فى داره من هم نفسه. فقد كانت له بصدق إيمانها وعظيم حبِّها، وزيرَ صدق تسرّى عنه كل همّه، وتقوّى فيه كل عارض ضعف من أثر أذى خصومه وإمعانهم فى مناوأته وإيصال الأذى لأتباعه. وفى الحقّ أن قريشًا لم تنم ولم تَعْدُ لما عرفت من قبلُ من دَعَة النعيم؛ بل وثبتْ كل قبيلة على من فيهم من المسلمين يعذّبونهم ويفتنونهم عن دينهم، حتى ألقى أحدهم عبدَه الحبشىَّ بلالًا على الرمل تحت الشمس المحرقة ووضع حجرًا على صدره وتركه ليموت، لا لشىء إلا أنه أصرَّ على الإسلام! ولم يزد بلال وهو فى هذه الحال على أن يكرّر كلمة: «أَحَدٌ أَحَدٌ» محتملا هذا العذاب فى سبيل دينه. وقد رآه أبو بكر يومًا يُعانى هذا العذاب فاشتراه وأعتقه واشترى أبو بكر كثيرًا من الموالى الذين كانوا يعذبون، ومن بينهم جارية لعمر بن الخطاب اشتراها منه قبل إسلامه. وعذّبت امرأة حتى ماتت لأنها لم ترض أن ترجع عن الإسلام إلى دين آبائها. وكان المسلمون من غير الموالى يُضْرَبون وتُوَجَّه إليهم أشدّ صور المهانة. ولم يَسْلَم محمد ﷺ، مع منع بنى هاشم وبنى المطلب له، من هذه الإساءات. كانت أمّ جميل زوج أبى لَهب تلقى النجس أمام بيته فيكتفى محمد بأن يزيله. وكان أبو جهل يلقى عليه أثناء صلواته رحم شاة مذبوحة ضحية للأصنام فيحتمل الأذى ويذهب إلى ابنته فاطمة لتعيد إليه نظافته وطهارته. هذا إلى جانب ما كان المسلمون يسمعون من لغو القول وهُجْر الكلام حيثما ذهبوا. واستمرّ الأمر على ذلك طويلا، فلم يردادوا إلا حرصًا على دينهم وابتهاجًا بالأذى والتضحية فى سبيل عقيدتهم وإيمانهم.

## صبر المسلمين على الأذى:

هذه الفترة من فترات حياة محمد عليه السلام هى من أشدّ ما عرف التاريخ الإنسانى روعة فى العصور جميعًا. فما كان محمد ﷺ والذين اتّبعوه طلّاب مال ولا جاه ولا حكم أو سلطان؛ إنما كانوا

طلّاب حق وإيمان به. وكان محمد ﷺ طالب هدى للذين يصيبونه بالأذى وتحرير لهم من ربقة الوثنية الوضيعة التى تنحدر بالنفس الإنسانية إلى خزى المذلّة والهوان. فى سبيل هذه الغاية الروحيّة السامية، لا فى سبيل شىء آخر، كان الأذى يصله، وكان الشعراء يسبونه، وكانت قريش تآمر به حتى حاول رجل قتله عند الكعبة. وكان منزله يُرجم، وكان أهله وأتباعه يُهدَّدون، فلا يزيده ذلك إلا صبرًا وإمعانًا فى الدعوة. وامتلأت نفوس المؤمنين الذين اتّبعوه بقوله: «والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته». وهانت عليهم جميعًا التضحيات الجسام، وهان عليهم الموت فى سبيل الحق وهداية قريش له. وقد تَعْجَب لهذا الإيمان الآخذ بنفوس أولئك المكيين ولمّا يكن الدين قد كمل، ولمّا يكن قد نزل من القرآن إلا القليل. وقد تحسب أن شخصية محمد ﷺ ودماثة طبعه وجميل خُلقه وما عُرف من صدقه وما بدا من صلابة عوده وقوة عزمه وثبات إرادته، كان السبب فى كل هذا، ولا ريب قد كان لهذا كله حظه ونصيبه، لكن عوامل أخرى جديرة بالتقدير والاعتبار كان لها هى أيضًا نصيب فى ذلك غير قليل.

فقد كان محمد ﷺ فى بلاد حُرَّة هى أشبه ما تكون بالجمهورية. وكان فى الذّروة والسنام منها حسبًا ونسبًا. وكان قد وصل من المال إلى ما يشاء. وكان إلى ذلك من بنى هاشم. اجتمعت لهم سدانة الكعبة وسقاية الحاجّ وما شاءوا من مجد الألقاب الدينيَّة. فلم يكن لذلك فى حاجة إلى المال أو الجاه أو المكانة السياسية أو الدينية. وكان فى ذلك على خلاف مَن سبقه من الرسل والأنبياء. فقد وُلد موسى فى مصر وفيها فرعون يدين له أهلها بالألوهية وينادى هو فيهم «أنا رَبكُم الأعلَى»، وتعاونه طائفة رجال الدين على سَوْم الناس ألوان الظلم والاستغلال والعسف، فكانت الثورة التى قام بها موسى بأمر ربه ثورة نظام سياسىّ ودينى معًا. أليس يريد أن يكون فرعون والرجل الذى يرفع الماء بالشادوف من النيل أمام الله سيّين؟ إذًا فما هى ألوهيَّة فرعون وما هذا النظام القائم! يجب أن يُحطم ذلك كله، ويجب أن تكون الثورة سياسية أولا. لهذا لقيت الدعوة الموسويَّة منذ بداءتها حربًا من فرعون شعواء، ولذلك آزرت لمعجزاتُ موسى ليؤمن الناس بدعوته. ألقى عصاه فإذا هى حيَّة تسعى تَلْقَفُ ما صنع سحرة فرعون. ولم يُجْدِ ذلك موسى شيئًا، فاضطُرَّ إلى مغادرة وطنه مصر، وقد آزرته فى هجرته معجزة إنفلاق الطريق فى البحر خلال الماء. وقد وُلد عيسى فى النَّاصرة من أعمال فلسْطين، وهى يومئذ ولاية رومانية خاضعة لحكم القياصرة ولظلم المستعمرين بها ولآلهة رومية، فدعا الناس إلى الصبر على الظلم، وإلى المغفرة للتائب المنيب، وإلى ألوان من الرحمة اعتبرها القائمون بالأمر ثورة على تجبرهم، فآزرت عيسى معجزاتُ إحياء الموتى وإبراء المرضى وسائر ما أيده به روح القُدُس من عنده. صحيح أن تعاليمهم تنتهى فى جوهرها إلى ما تنتهى إليه تعاليم محمد ﷺ فى جوهرها، مع خلاف فى التفاصيل ليس هنا موضع إيضاحه. ولكنَّ هذه العوامل المختلفة، والعامل السياسىّ فى مقدَّمتها، وجَّهت دعوتها اتجاهها. أمَّا محمد ﷺ، وكانت

ظروفه ما قدّمنا، فكانت رسالته عقليَّة روحيَّة، أساسها الدعوة إلى الحق والخير والجمال، دعوة مجرَّدة فى بَدْئها وفى غايتها. ولبعدها عن كل خصومة سياسية لم تزعج النظام الجمهورى الذى كان قائمًا بمكة بأية صورة من صور الإزعاج.

**دعوة محمد ﷺ والطريقة العلمية الحديثة:**

وقد تأخذ القارئ الدهشة إذا ذكر ما بين دعوة محمد والطريقة العلمية الحديثة من شبه قوّى، فهذه الطريقة العلمية تقتضيك إذا أردت بحثًا أن تمحو من نفسك كل رأى وكل عقيدة سابقة لك فى هذا البحث، وأن تبدأ بالملاحظة والتجربة، ثم بالموازنة والترتيب ثم بالاستنباط القائم على المقدّمات العلمية فإذا وصلت إلى نتيجة من ذلك كانت نتيجة علمية خاضعة بطبيعة الحال للبحث والتمحيص، ولكنها تظل علميةً ما لم يثبت البحث العلمى تسرّب الخطأ إلى ناحية من نواحيها. وهذه الطريقة العلمية هى أسمى ما وصلت إليه الإنسانية فى سبيل تحرير الفكر، وها هى ذى مع ذلك طريقة محمد وأساس دعوته، فكيف اقتنع الذين اتبعوه بدعوته وآمنوا بها؟ نزَعوا من نفوسهم كل عقيدة سابقة وبدءوا يفكرون فيما أمامهم.

**جوهر الدعوة المحمدية:**

لقد كان لكل قبيلة من قبائل العرب صنم. فأى صنم هو الحق وأى صنم هو الباطل؟ وكان فى بلاد العرب وفى البلاد التى تجاورها صابئة ومجوس يعبدون النار، وكان فيها الذين يعبدون الشمس فأىّ هؤلاء على الحق، وأيهم على الباطل؟ لنَذَرْ هذا كله إذًا جانبًا، ولْنَمْحُ أثره من نفوسنا، ولنتجرد من كل رأى ومن كل عقيدة سابقة ولننظر. والنظر والملاحظة بطبيعة الحال سيَّان مما لا شبهة فيه أن لكل موجود بسائر الموجودات اتصالا؛ فالإنسان تتصل قبائله بعضها ببعض وأمم بعضها ببعض. والإنسان يتصل بالحيوان والجماد. وأرضنا تتصل بالشمس وبالقمر وبسائر الأفلاك. وذلك كله يتصل فى سنن مطَّردة لا تحويل لها ولا تبديل. لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار. ولو أن إحدى موجودات الكون تحوَّلت لتبدَّل ما فى الكون فلو أن الشمس لم تُسْعد الأرض بالنور والحرارة، على السنّة التى تجرى عليها منذ ملايين السنين، لتبدَّلت الأرض غير الأرض والسماء. وما دام ذلك لم يحدُث، فلابد لهذا الكل من رُوح يُمسكه؛ منه نشأ، وعنه تطَّور، وإليه يعود. هذا الروح وحده هو الذى يجب أن يخضع له الإنسان. أمَّا سائر ما فى الكون فهو خاضع لهذا الروح كالإنسان سواء. والإنسان والكون والزمان والمكان وحدة، وهذا الروحُ جوهرها ومصدرها. وإذًا فلتكن لهذا الروح وحده العبادة. ولهذا الروح يجب أن تتجه القلوب والأفئدة. وفى الكون كله يجب أن نلتمس من طريق النظر والتأمل سُننه الخالدة. وإذًا فما يعبد الناس من دون الله أصنامًا وملوكًا وفراعنة ونارًا وشمسًا إنما هو وهم باطل غير جدير بالكرامة الإنسانية، ولا هو يتفق مع عقل الإنسان وما كرّم به من القدرة على استنباط سُنَّة الله من طريق النظر فى خلقه.

هذا جوهر الدعوة المحمدية على ما عرفها المسلمون الأوّلون. وقد أبلغهم الوحى إياها على لسان محمد فى آى من البلاغة كانت ولن تزال معجزة؛ فجمع لهم بذلك بين الحق وتصويره فى كمال جماله. وهنالك ارتقت نفوسهم وسَمتْ قلوبهم تريد الاتصال بهذا الروح الكريم؛ فهداهم محمد ﷺ إلى أن الخير هو طريق الوصول، وأنهم مجزيُّون عن هذا الخير يوم يُتمون واجبهم فى الحياة بالتقوى، ويوم تُجْزَى كلُّ نفس بما كسبت. ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ. وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾[١].

أىُّ سموّ بالعقل الإنسانى أعظم من هذا السموّ! وأى تحطيم لقيوده أشدُّ من هذا التحطيم!! حسبُ الإنسان أن يفهم هذا وأن يؤمن به وأن يعمل عليه ليبلغ الذروة من مراتب الإنسان. وفى سبيل هذه المكانة تهون كل تضحية على من يؤمن بها.

### إسلام حمزة:

وقد كان من جلال موقف محمد ومن اتبعه أن ازداد بنو هاشم وبنو المطلب منعًا له ودفعًا للأذى عنه. مرَّ أبو جهل بمحمد يومًا فآذاه وشتمه ونال منه بعض ما يكره من العيب لدينه والتوهين من أمره، فأعرض محمد عنه وانصرف ولم يكلمه. وكان حمزة عمه وأخوه من الرضاعة، لا يزال على دين قريش، وكان رجلًا قويًّا مخوفًا. وكان ذا ولع بالصيد، فإذا رجع من صيده طاف بالكعبة قبل أن يعود إلى داره. فلما جاء فى ذلك اليوم وعلم بما أصاب ابن أخيه من أذى أبى جهل ملأه الغضب، وذهب إلى الكعبة ولم يقف مسلمًا على أحد ممن كان عندها كعادته، ودخل المسجد فألفى أبا جهل فقصد إليه، حتى إذا بلغه رفع القوس فضربه بها فشجَّه شجة منكرة. وأراد رجال من بنى مخزوم أن ينصروا أبا جهل فمنعهم حسمًا للشر ومخافة استفحاله معترفًا أنه سبَّ محمدًا ﷺ سبًّا قبيحًا، ثم أعلن حمزة إسلامه، وعاهد محمدًا على نصرته والتضحية فى سبيل الله حتى النهاية.

### سفارة عتبة بن ربيعة:

ضاقت قريش ذرعًا بمحمد وأصحابه إذ رأتهم يزدادون كل يوم قوّة. ثم لا يثنيهم الأذى ولا يصرفهم العذاب عن إيمانهم والجهر به، وعن صلواتهم وأداء فرضها؛ فخُيِّل إليهم أن يتخلَّصوا من محمد بما توهموا من إرضاء مطامعه، ناسين عظمة الدعوة الإسلامية ونزاهة جوهرها الروحى السامى عن الخصومة السياسية. فقد رغبَ عُتْبة بن ربيعة، وكان من سادات العرب، إلى قريش وهم فى ناديهم أن يكلم محمدًا ﷺ وأن يعرض عليه أمورًا لعله يقبل بعضها فيعطونه أيها شاء ويكف عنهم. وكلم عتبة محمدًا فقال: «يا بن أخى، إنك منّا حيث قد علمت من المكان فى النسب، وقد أتيت قومك بأمر عظيم فرَّقت به جماعتهم. فاسمع منى أعرض عليك أمورًا لعلك تقبل بعضها... إلخ.

---

(١) سورة الزلزلة آيتا ٧ و ٨.

كنت إنما تريد بهذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا. وإن كنت تريد تشريفًا سوَّدناك علينا، فلا نقطع أمرًا دونك. وإن كنت تريد ملكًا ملكناك علينا. وإن كان هذا الذى يأتيك رئيا[1] تراه لا تستطيع ردَّهُ عن نفسك طلبنا لك الطبّ وبذلنا فيه أموالنا حتى تبرأ». فلما فرغ من قوله تلا محمد ﷺ عليه سورة السجدة وعُتبة منصت يستمع إلى أحسن القول ويرى أمامه رجلا لا مطمع له فى مال ولا تشريف ولا فى مُلك ولا هو بالمريض، وإنما يُدلى بالحق، ويدعو إلى الخير، ويدفع بالتى هى أحسن، مع الإعجاز فى العبارة فلما انتهى محمد انصرف عتبة إلى قريش مأخوذًا بجمال ما رأى وسمع، مأخوذًا بعظمة هذا الرجل وسحر بيانه. ولم يَرقْ قريشًا أمر عتبة ولا راقها رأيه أن تترك للعرب محمدًا ﷺ، فإن تغلبت عليه استراحت قريش، وإن تبعته فلها فخاره. فعادت تناوئ محمدًا ﷺ وتناوئ أصحابه وتصيبهم من البلاء مما كان هو فى منجاة منه بمكانته من قومه ومَنَعته بأبى طالب وبنى هاشم وبنى المطلب.

## الهجرة إلى الحبشة:

وزاد ما ينزل بالمسلمين من الأذى، وبلغ منهم القتل والتعذيب والتمثيل، هنالك أشار عليهم محمد ﷺ أن يتفرّقوا فى الأرض. فلما سألوه أين نذهب؟ نصح إليهم أن يذهبوا إلى بلاد الحبشة المسيحيَّة «فإن بها مَلكًا لا يُظْلَم عنده أحد، وهى أرض صدق حتى يجعل الله لكم فرجًا مما أنتم فيه». فخرج فريق من المسلمين عند ذلك إلى أرض الحبشة مخافة الفتنة وفرارًا إلى الله بدينهم. وخرجوا فى هجرتين؛ كانوا فى الأولى أحد عشر رجلا وأربع نساء تسللوا من مكة لواذًا، ثم أقاموا فى خير جوار من النجاشى، حتى ترامى إليهمْ أن المسلمين بمكة أصبحوا بمأمن من أذى قريش فعادوا، كما سنقصُّه من بعدُ. فلما لقَوْا عَنَتَ قريش وأذاهم أبلغ مما كان عادوا إلى الحبشة فى ثمانين رجلا غير نسائهم. وأطفالهم، وأقاموا بها إلى ما بعد هجرة النبى إلى يَثْرِب. وهذه الهجرة إلى الحبشة كانت أوّل هجرة فى الإسلام.

## سفيرا قريش إلى النجاشى:

من حق من يؤرخ لمحمد ﷺ أن يسأل: أكان كل القصد من هذه الهجرة، التى قام بها المسلمون بأمره ورأيه، الفرار من كفّار مكة وما يُلحقون بهم من الأذى؟ أم أنها كان لها كذلك غرض سياسىّ إسلامىّ رمى محمد ﷺ من ورائه إلى غاية عُليا؟ من حق مؤرخ محمد ﷺ أن يسأل عن هذا بعد ما ثبت من تاريخ هذا النبىّ العربى فى أطوار حياته جميعًا أنه كان سياسيًّا بعيد الغور، كما كان صاحب رسالة وأدب نفس لا يُدانيه فيهما فى السموّ والجلال والعظمة مُدان. ويدعونا إلى هذه المسألة ما تجرى به الرواية من أن أهل مكة لم يستريحوا إلى خروج من خرج من المسلمين إلى

(١) الرئى: التابع من الجن.

الحبشة، بل بعثوا رجلين إلى النجاشى ومعهما الهدايا النفيسة ليقنعوه بأن يردّ المسلمين من مواطنيهم إليهم. والحبشة ونجاشيها كانوا نصارى، فليس تخشى قريش عليهم من الناحية الدينية أن يتّبعوا محمدًا. فهل تراهم عُنُوا بالأمر وبعثوا يستردون المسلمين لأنهم رأوا أن حماية النجاشى إيَّاهم بعد سماعه أقوالَهم قد تكون ذات أثر فى إقبال أهل جزيرة العرب على دين محمد ﷺ واتباعهم إياه؟ أم هم خافوا، إن بقى هؤلاء فى الحبشة، أن تشتد شوكتهم، فإذا عادوا بعد ذلك لمعونة محمد ﷺ عادوا أقوياء بالمال والرجال؟

كان الرسولان عمرو بن العاص وعبد الله بن أبى ربيعة. وقد دفعا إلى النجاشى وإلى بطارقته بالهدايا كى يرد المهاجرين من أهل مكة إليها. ثم قالا: «أيها الملك إنه قد ضَوَى[1] إلى بلدك منا غلمانٌ سفهاء فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا فى دينك، وجاءوا بدين ابتدعوه لا نعرفه نحن ولا أنت. وقد بَعَثَنَا إليك فيهم أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائرهم لتردَّهم إليهم؛ فهم أعلى بهم عينًا وأعلم بما عابوا عليهم وعاتبوهم فيه». وكان السفيران قد اتفقا مع بطارقة النجاشى بعد أن أتحفاهم بهدايا أهل مكة أن يعاونوهم على ردّ المسلمين إلى قريش دون أن يسمع النجاشى كلامهم، فأبى النجاشى أن يفعل حتى يسمع ما يقولون، وبعث فى طلبهم. فلما جاءوا سألهم:

ما هذا الدين الذى فارقتم فيه قومكم ولم تدخلوا به فى دينى ولا دين أحد من هذه الملل؟

**رد المسلمين على السفيرين:**

فكان الذى كلَّمه جعفر بن أبى طالب، قال:

«أيها الملك، كنَّا قومًا أهل جاهلية، نعبد الأصنام ونأكل الميتة ونأتى الفواحش ونقطع الأرحام ونُسىء الجوار ويأكل القوىّ منا الضعيف. فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه؛ فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه، من الحجارة والأوثان. وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم وحسن الجوار والكفّ عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم وقذف المحصنات، وأمرنا أن نعبد الله ولا نشرك به شيئًا. وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام - وعدّد عليه أمور الإسلام - فصدقناه به واتّبعناه على ما جاء به من الله. فعبدنا الله وحده لا نشرك به شيئًا. وحرَّمنا ما حرّم علينا، وأحللنا ما أحلّ لنا، فعدا علينا قومنا فعذّبونا وفتنونا عن ديننا ليردّونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله، وأن نستحلّ ما كنا نستحل من الخبائث. فلما قهرونا وظلمونا وضيَّقوا علينا وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا إلى بلادك واخترناك على من سواك؛ ورغبنا فى جوارك ورجونا ألّا نُظْلَم عندك». فقال النجاشى: «وهل معك مما جاء به عن الله من شىء تقرؤه علىّ؟».

---

(١) ضوى: أتى.

قال جعفر: نعم! وتلا عليه سورة مريم من أوّلها إلى قوله تعالى: ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكلم مَنْ كَانَ فى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا. قَالَ إِنِّى عَبدُ الله آتَانِىَ ٱلْكتَابَ وَجَعَلَنى نَبِيًّا. وَجَعَلَنى مُبَارَكًا أَيْنَمَا كُنْتُ وَأَوْصَانِى بالصَّلاة وَٱلزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا. وَبَرًّا بِوالِدتى ولَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقيًّا. وَالسَّلامُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾[1].

## جواب النجاشى والبطارقة:

فلما سمع البطارقة هذا القول مصدّقًا لما فى الإنجيل أخذوا وقالوا: هذه كلمات تصدر من النبع الذى صدرت منه كلمات سيدنا يسوع المسيح. وقال النجاشى: إن هذا والذى جاء به موسى لَيخْرُج من مشكاة واحدة. انْطَلقا والله لا أسلمهم إليكما. فلما كان الغد عاد ابن العاص إلى النجاشى فقال له: إن المسلمين يقولون فى عيسى بن مريم قولاً عظيمًا، فأرسل إليهم فسَلْهم عما يقولون فيه. فلما دخلوا عليه قال جعفر بن أبى طالب: فيه نقول الذى جاء به نبيُّنا، يقول هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البَتُول. فأخذ النجاشى عودًا وخطّ به على الأرض وقال – وقد بلغت منه المسرّة أكبر مبلغ: ليس بين دينكم ودِيننا أكثر من هذا الخطّ. وكذلك تبيَّن للنجاشى بعد سماع الفريقين أنّ هؤلاء المسلمين يعترفون بعيسى ويقرُّون النصرانية ويعبدون الله. ووجد المسلمون فى جوار النجاشى أمنًا ودعة حتى رجعوا إلى مكة للمرة الأولى ومحمد ما يزال بها. حين بلغهم أن خصومة قريش هدأت. فلما رأوا المكّيين ما يزالون يُنزلون به وبأعوانه الأذى عادوا إلى الحبشة فى ثمانين رجلا غير نسائهم وأطفالهم. أفكانت هجرتاهم هاتان لمجرّد الفرار من الأذى، أم كان لها، ولو فى تدبير محمد وحده غاية سياسية يجمُل بالمؤرّخ أن يجلوها؟

## المسلمون ونصرانية الحبشة:

ومن حق مؤرّخ محمد – أن يسأل: كيف أمن محمد – على أصحابه هؤلاء أن يذهبوا إلى أرض الحبشة والنصرانية دين أهلها، دين كتاب، ورسولها عيسى يقرُّ الإسلامُ رسالته، ثم لا يخاف عليهم فتنة كفتنة قريش وإن تكن من نوع آخر؟ وكيف أمن هذه الفتنة والحبشة بلاد بها من الخصب ما ليس بمكة؛ فهى أشدّ من قريش فتنة؟ ولقد تنصّر بالفعل أحد المسلمين الذين ذهبوا إلى الحبشة، فدل تنصُّره على أن خوف هذه الفتنة كان جديرًا بأن يُساور محمدًا وقد كان لا يزال ضعيفًا، ولا يزال الذين اتّبعوه فى أشدّ الريب من قدرته على حمايتهم أو الانتصار به على عدوهم. وأكبر الظن أن يكون ذلك قد دار بخاطر محمد ﷺ، أن كانت سعة ذهنه وذكاء فؤاده وبعد نظره عدْلاً لسموّ روحه وكرم نفسه وحسن أدبه ورقة عاطفته. لكنه كان مطمئنًّا من هذه الناحية تمام الطمأنينة؛ فقد كان الإسلام يومئذ، وإلى يوم مات صاحب الرسالة، فى صفاء جوهره لم تشب نقاءه ولا سموَّه

(١) سورة مريم الآيات من ٢٩ إلى ٣٣.

شائبة. وكانت نصرانية الحبشة كنصرانية نجران والحيرة والشام قد اندسّ إليها من شوائب الخلاف بين مؤلهي مريم ومؤلهي عيسى والمخالفين لهؤلاء وأولئك مالا يخشى معه على أولئك الذين كانوا ينهلون من نبع الرسالة المصفّى.

## الروح فى الإسلام:

وفى الحق أن أكثر الأديان ما كانت تتخطى على الزمان أجيالا معدودة حتى يندسّ إليها نوع من الوثنية، إن لم يكن من هذا الطراز الوضيع الشائع يومئذ فى بلاد العرب فإنه وثنية على كل حال. والإسلام نزل عدوّ الوثنية اللّدود فى جميع صورها وأوضاعها. ثم إن النصرانية تعترف من ذلك التاريخ لطائفة رجال الدين بمكانة خاصة لم يعرفها الإسلام قطّ، وكان يومئذ أشدّ ما يكون عليها سموًّا، ومنها براءة. ثم إنه كان يومئذ وبقى فى جوهره دينَ السمو بالنفس الإنسانية إلى الذروة العليا من السمو. فلم يدع صلة بين المرء وربه غير العمل الصالح والتقوى، وأن يحبّ الإنسان لأخيه ما يحب لنفسه. لم تبق أصنام ولم يبق كهنة ولم يبق عَرَّافون ولم يبق شيء يحول دون أن تسمو الروح الإنسانية لتتّصل بالوجود كله صلة خير ومعروف، ليكون جزاؤها عند الله أكبر من عملها أضعافًا مضاعفة. والروح! الروح الذى هو من أمر الله! الروح المتّصل بأزل الزمن وأبده! هذا الروح ما عمل صالحًا فلا حجاب بينه وبين وجه الله ولا سلطان لغير الله. يستطيع الأغنياء والأقوياء والشريرون أن يعذّبوا الجسد وأن يحولوا بينه وبين ملاذه وشهواته وأن يُهلكوه، لكنهم لن يصلوا إلى الروح مادام صاحبه يريد به سموًّا فوق سلطان المادة وفوق سلطان الزمن واتصالاً بالوجود كله. إنما يُجْزَى الإنسان عن أعماله يوم تُجْزَى كلُّ نفس بما كسبت يومئذ لا يجزى والدٌ عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئًا، ويومئذ لا ينفع الأغنياء ما لهم، ولا الأقوياء قوّتهم، ولا المتكلمين كلامهم؛ إنما هى الأعمال وحدها تشهد لصاحبها أو تشهد عليه. ويومئذ يقف هذا الوجود جميعًا متسقة وحدته مجتمعًا أزله وأبده، لا يظلم ربك أحدًا. ولا تُجْزَوْن إلّا ما كنتم تعملون.

كيف يخاف محمد ﷺ الفتنة على من علمهم هذه المعانى ومن بثّها فى نفوسهم فحلّت منهم فى سويداء القلب ومكان العقيدة والإيمان! ثم كيف يخاف عليهم الفتنة ومَثَلُه حاضرٌ أمامهم بشخصه المحبوب، حتى ليحبّه أحدهم أكثر من حبّه نفسَه وبنيه وأهله. شخصه الذى يضع هذه العقيدة فوق ملك الأرض والسماء والشمس والقمر ويقول لعمه: «والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته». شخصه الذى يضيء بنور الإيمان والحكمة والعدل والخير والحق والجمال. الممتلئ إلى جانب ذلك تواضعًا وبرًّا ومودة ورحمة. لذلك كان مطمئنًّا إلى هجرة أصحابه هؤلاء إلى الحبشة كل الاطمئنان. وكان أمْنُهم عند النجاشى وسكينتهم إلى دينهم بين قوم لا تربطهم بهم أواصر قربى أو عطف، مما جعل قريشًا تشعر بما فى إيذائها للمسلمين، وهم منهم وهم أهلوهم وأنسابهم، من ظلم ومن عَنَت ومن إمعان فى الفجور، ومن

تحميل كل ألوان الأذى لهؤلاء الذين ارتفعت نفوسهم فوق الأذى، فأصبح لا يناله سوء، وأصبحوا يرون فى الصبر على البأساء قربى إلى الله ومغفرة منه.

## إسلام عمر بن الخطاب:

وكان عمر بن الخطاب يومئذ رجلا فى فتوَّة الرجولة، بين الثلاثين والخامسة والثلاثين. وكان مفتول العضل، قوىّ الشكيمة، حاد الطبع، سريع الغضب محبًّا للهو والخمر، وفيه إلى ذلك برٌّ بأهله ورقة لهم. وكان من أشدّ قريش أذى للمسلمين ووقيعة فيهم. فلما رآهم هاجروا إلى الحبشة ورأى النجاشى حماهم، شعَر لفراقهم بوحشة، ولما لفراقهم وطنهم من ألم يحزّ فى الكبد ويَفْرِى المهجة. وكان محمد ﷺ يومًا مجتمعًا مع أصحابه الذين لم يهاجروا فى بيت عند الصفا، ومن بينهم عمّه حمزة وابن عمه علىّ بن أبى طالب وأبو بكر بن أبى قُحافة وغيرهم من سائر المسلمين. وعرف عمر اجتماعهم، فقصد إليهم يريد أن يقتل محمدًا ﷺ كى تستريح قريش وتعود إليها وحدتُها بعد أن فرَّق أمرَها وسفَّه أحلامها وعاب آلهتها ولقيه نعَيْم بن عبد الله فى الطريق وعرف أمره فقال له: «والله لقد غشتْك نفسك من نفسك يا عمر! أترى بنى عبد مناف تاركيك تمشى على وجه الأرض وقد قتلت محمدًا؟! أفلا ترجع إلى أهل بيتك وتقيم أمرهم!»، وكانت فاطمة أخت عمر وزوجها سعيد بن زيد قد أسلما. فلما عرف عمر من نُعَيْم أمْرهما كرّ راجعًا إليهما ودخل البيت عليهما، فإذا عندهم من يقرأ عليهما القرآن. فلما أحسّوا دنوَّ داخل عليهم اختفى القارئ وأخفت فاطمة الصحيفة وسأل عمر: ما هذه الهَيْنمة التى سمعتُ؟ فلما أنكرا صاح بهما: لقد علمتُ أنكما تابعتما محمدًا على دينه، وبطش بسعيد. فقامت فاطمة تحمى زوجها فضربها فشجَّها. فهاج إذ ذاك هائج الزوجين وصاحا به: نعمْ أسلمنا، فاقض ما أنت قاض. واضطرب عمر حين رأى ما بأخته من الدم، وغلبه برُّه وعطفه، فارعوى وسأل أخته أن تعطيه الصحيفة التى كانوا يقرءون. فلما قرأها تغيَّر وجهه وأحس الندم على صنيعه، ثم اهتزَّ لما قرأ فى الصحيفة وأخذه إعجازها وجلالها وسموّ الدعوة التى تدعو إليها، فزاد جانبُ البر غلبة عليه. وخرج وقد لان قلبه واطمأنت نفسه؛ فقصد إلى مجلس محمد ﷺ وأصحابه عند الصفا. فاستأذن وأعلن إسلامه، فوجد المسلمون فيه وفى حمزة للإسلام منعَةً وللمسلمين حمىً.

وفتَّ إسلامُ عمر فى عَضَد قريش، فأثمرت مرةً أخرى ما تصنع. والحقّ أن هذا الحادث عزَّز المسلمين بعنصر جديد قوىّ غاية القوة، جعل موقف قريش منهم وموقفهم من قريش غير ما كان، واستتبع ما بين الطرفين سياسة جديدة مليئة بأحداث وتضحيات وقوًى جديدة أدّت إلى الهجرة وإلى ظهور محمد ﷺ السياسىّ إلى جانب محمد الرسول ﷺ.